(تتمة الحديث على بيئة الحجاز وشعر الغزل اللاهي؛ شعر عمر بن أبي ربيعة)

ولعل هذه العناصر لم تكتمل في قصيدة من قصائده مثلما اكتملت في رائيته المشهورة التي تعد أطول قصيدة في ديوانه:

أمنْ آل نُعْمٍ أنت غادٍ فمبكر غداةَ غدٍ أم رائحٌ فمهجِّرُ

فهو في هذه القصيدة يحكي قصة مغامرة غرامية قام بها– من أجل صاحبته (نعم) فيعرض في بدايتها الشخصيتين الأساسيتين في قصته: هو وهي– ويرسم صورة للجو الذي يحيط بهما، فهو عاشق معشوق وهي مفتونة به، ومن حولهما أهل لها يتنمرون عليه ووشاة يكيدون لهما، وهو مغامر «أخو سفر جواب أرض» وقد برّح به الشوق فيبعث إليها برسول يحدد معها موعداً وبعد هذا العرض ينطلق إلى موضوع القصة فنراه في مجلسه الوعر على مقربة من خباء صاحبته يدبر أمره، ويرُقب الحي حتى يستمكن النوم منهم، حتى إذا ما سكنت الأصوات وأطفئت المصابيح والأنوار وغاب الهلال الذي كان يرجو غيابه وروّح الرعيان ونوّم السّمار، تسلل إليها في حذر كما تتسلل الأفعى وكانت مفاجأة لها:

فحييتُ إذ فاجأتُها فتولّهت وكادت بمخفوض التحية تجهرُ

وقالت وعضت بالبنان: فضحتني وأنت أمرؤ ميسورُ أمرك أعسر

فوالله ما أدري أتعجيلُ حاجةٍ سَرَتْ بك أم قد نام من كنتَ تحذرُ

فقلت لها: بل قادني الشوقُ والهوى إليكِ وما نفس من الناس تشعر

فقالت وقد لانت وأفرخُ روعُها: كلاَكَ بحفظٍ ربُّك المتكبرُ

إنه يعرض نفسية المرأة بكل ما تنطوي عليه من خوف وإشفاق وحذر وتدلل وتمنع، وحب للثناء، واستجابة للإطراء، وبكل ما يصدر منها في مثل هذا الموقف من تصرفات وما يجري على لسانها في عبارات، لقد لانت بعد استعصاء، وهدأت بعد قلق، وكانت ليلة راحا يتبادلان فيها حديث الحب في مجلس لم يكدّره عليهما مكدر:

فلما تقضى الليلُ إلا أقلَّه وكادت توالي نجمه تتغوّر

أشارت بأن الحيَّ قد حان منهمُ هبوبٌ ولكن موعدٌ منك عزورُ

لقد ضربت له موعداً يلتقيان فيه وهمّ هو بالانصراف، ولكن وقعا في مشكلة كبيرة، لقد استيقظ الحي وهو ما زال عندها:

فلما رأت من قد تنبّه منهم وأيقاظهم قالت أشّر كيف تأمر؟
فقلت أباديهم فإمّا أفوتهم وإمّا ينال السيف ثأراً فيثأر

لقد بلغت القصة «ذروة التعقيد»، وآن لها أن تنحدر نحو «الحل» إنه صاحته تنكر عليه جرأته في هذا الموقف، وترى فيه فضيحة لها وتشهيراً بها، وبطبيعتها الأنثوية تلجأ إلى الحيلة، ولا تجد أمامها إلا أختيها تقص عليهما الأمر لعلها تجد عندهما مخرجا:

فقامت كئيباً ليس في وجهها دمٌ من الحزن تُذْري عبرة تتحدر
فقامت إليها حُرَّتان عليهما كساءان من خزٍّ: دمقس وأحضر
فقالت لأختيها: أعينا على فتى أتى زائراً والأمر للأمر يقدر
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا: أقلِّي عليكِ اللومَ فالخطبُ أيسر
يقوم فيمشي بيننا متنكراً فلا سرُّنا يفشو ولا هو يظهر
فكان مجنِّي دون من كنت أتقي ثلاثُ شخوصٍ: كاعبات ومُعْصِرُ
فلما أجزنا ساحة الحي قلن لي أما تتقي الأعداء والليلُ مقمرُ؟
وقلن: أهذا دأبك الدهرَ سادراً أما تستحتي أو ترعوي أو تفكر؟
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

لقد جاء الحل على هذه الصورة المرحة العابثة، ونجا المغامر من الخطر الذي كان يحيط به، وهدأت نفس العاشقة وعادت إليها الابتسامة والمرح فكان هذا العبث الأنثوي المرح، وهذه النصيحة الماكرة، وذهب كلٌّ لشأنه: أما هي فقد عادت إلى خبائها وهي تبادله نظرات الوداع وأما هو فقد عاد إلى دياره.

على هذا النحو كان يوفر لبعض قصائده جهداً قصصياً كبيراً تساعده عليه طبيعة حياته الحافلة بالمغامرات، وخبرته بالمرأة المعاصرة له، إلى جانب الطاقة الخيالية والتعبيرية الواسعة. وكان هذا الجهد يصل به أحياناً إلى درجة كبيرة من الإجادة والإتقان وإحكام البناء القصصي فيوفر: (الزمان- المكان- الحوار- الشخصيات- الموسيقا- التشويق- المفاجأة- الحل...».

وليس هذا كلَّ شيء في شعر الحب عند عمر، وإنما هناك ظاهرة أخرى تميِّزه، وتجعله لوناً فريداً لا نظير له في الشعر العربي القديم كله. ففي شعره نرى لوناً من «النرجسية» أي (حب الذات) فكما فُتن «نارسيس» بنفسه ذلك الشاب الإغريقي الجميل كذلك فتن عمر بنفسه، وقضى حياته مشغولاً بصورته الجميلة التي كانت تعكسها عيون صاحباته المشغوفات به. وبسبب ذلك نراه لا يتحدث عن حبّه لصاحبته بل نراه يتحدث عن حبّها له، فهو الذي يتدلّل ويتمنع ويصد ويهجر، وهي التي تتابعه وتلاحقه وتتذلل له، وهي التي تبكي من أجله وتسهر الليالي من حبه وفي أثناء ذلك يصف على لسانها حسنه وجماله ودلاله، فهو مشغول بنفسه أكثر مما هو مشغول بها. وهو بهذا يخالف ما ألفه الناس من طبيعة الغزل مخالفة جوهرية تقلب أوضاعه المستقرة. يظهر ذلك في قوله:

تقول إذّ أيقنت أني مفارقها ياليتني متُّ قبلَ اليوم يا عمرُ

وفي قوله:

قلتُ من أنت؟ فقالت أنا من فتن الله بكم فيمن فتن

أو في قوله:

بينما يذكرنني أبصرنني دون قيد الميل يعدو بي الأغرّ
قالت الكبرى أتعرفن الفتى قالت الوسطى: نعم هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر؟!

فهو يأتي بهذه الصورة التي لم تكن في يوم من الأيام تأتي في سياق الغزل إلا للمرأة (وهل يخفى القمر) تصوير المحبوبة بالقمر هو الأمر الشائع في الشعر العربي. أما أن يشّبه الرجل بالقمر والأنثى هي التي تشبهه فهذا أمر معكوس لا عهد للشعر العربي به، فهو دائماً المعشوق وهن العاشقات وهو دائماً الفارس الجميل الذي يفتنهن بجماله.

وفي كثير من شعره نرى صورة للمجتمع النسائي في عصره، وما يدور فيه بين الفتيات من أحاديث، وما تنطوي عليه أعماقهن من مشاعر وعواطف.

وعمر في شعره خبير بنفسية المرأة، غَزِل معاتب مجرِّب، يجيد الحديث إليها ويحسن اللعب بعواطفها (كما رأينا في مطولته) ويعرف السبيل إلى قلبها فكان بارعاً

أشد البراعة في مخاطبة النساء قديراً غاية القدرة على أن يقوم أمام صاحبته بدور العاشق المفتون حتى يدير رأسها باحتياله وتمثيله تارة بالحديث المعسول الذي تسترخي له أعصابها وتارة برسله من الجواري والصديقات اللاتي كان يبعث بهن إليها ليُيسرن له الصعب ويذللن المستعصي وتارة برسائله الحارة التي لها فعل السحر في قلوب العذارى المتعطشات إلى الحب.

هذا هو شاعرنا الذي عاش للحب وهذا دوره الذي لعبه على مسرح المجتمع الحجازي المتحضر في العصر الأموي.